قال: ولم فعلتم ذلك؟ فقال العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك وجع ذات الجنب. فقال: إذن ذلك لداء، ما كان الله ليعذبني به. لا يبقى في البيت أحد إلا لد، إلا عمي.

تقول عائشة: فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة - لقسم رسول الله ﷺ، عقوبة لهم بما صنعوا»[1] وهو عقاب أشبه بالمزاح، أما ما يعانيه عليه السلام، فكان أثرا من آثار أمر كاد يودي بحياته في سابق الأيام، وهو الآن يحدث عائشة عنه.. عن:

آلام سم اليهودية

يخاطبها وهي تمرضه فيقول: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم»[2] أي انقطاع عرقي من أثر ذلك السم.

وجاء يوم الخميس

يقول ابن عباس «يوم الخميس، وما يوم الخميس؟

ثم بكى حتى خضب دمعه الحصباء، فقال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، فقال: ائتوني بكتاب، أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع [فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

فاختلف أهل البيت، فاختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتاباً لن تضلوا بعده. ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: قوموا] فقالوا هجر[3] رسول الله ﷺ. قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه، وأوصى عند موته بثلاث:

---

(١) جزء من حديث ابن إسحاق السابق.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١١ معلقا ووصله الحاكم وله شاهد عند الدارمي١-٦٠

(٣) تعب وبدأ يهذي من شدة الألم.

أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم. ونسيت الثالثة»[1]

كان ذلك الكتاب يحمل نوعاً من اجتهاد النبي ﷺ الذي لم ينزل به وحي، وإلا لو كان وحياً لوجب عليه تبليغه كبقية رسالته لأن الله يقول له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

إذاً فعدم تبليغ جزء من الوحي هو عند الله عدم تبليغ للرسالة، وهو أمر لا يمكن التخلي عنه مهما كان السبب، أما هذا الكتاب الذي كان النبي ﷺ ينوي كتابته، فقد تراجع عنه، لأنه محض اجتهاد.. حرصاً منه على اجتماع أمته. فاكتفى ﷺ بتلك الوصايا الثلاث. ولم تكن هي الوصايا الوحيدة، فقد كان يوصي كل من يدخل عليه بوصية. كهذه الوصية التي تقرب الإنسان إلى ربه، وتقرب الإنسان إلى الإنسان أيضاً، والتي تفيض راحة ورحمة لمن يمتثل لها.. الصلاة والرفق بالمملوكين، ولعل أجمل الرفق بهم هو إعتاقهم.

تقول أم المؤمنين هند (أم سلمة) رضي الله عنها: «كان عامة وصية نبي الله ﷺ عند موته: الصلاة.. الصلاة. وما ملكت أيمانكم، حتى جعل نبي الله ﷺ يلجلجها في صدره، وما يفيض بها لسانه»[3] من حرصه على الأخذ بهما.

كان النبي ﷺ في يوم الخميس هذا يصلي بالناس وهو جالس، ولما حانت صلاة المغرب حمل عليه السلام ليصلي بالمؤمنين فصلى بهم وقرأ ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ...﴾

---

(١) صحيح البخاري ٣-١١١١ والزيادة عند مسلم ٣-١٢٥٩.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) سنده صحيح رواه أحمد ٦-٣١٥ وغيره عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال حدث سفينة عن أم سلمة. رجاله أئمة ثقات وسعيد أثبت الناس في قتادة وله شاهد عن علي.

كان الرجال والنســـاء ينصتون إلى ذلك الصوت الخاشع الذي أنهكه المرض. تقول إحدى النســـاء اللواتي كن خلف تلك التلاوة وخلــف ذلك النبي الإمام وهي أم الفضل زوجة العباس رضي الله عنهما: «ســمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثــم مــا صلى لنا بعدها حتى قبضه الله»[1] فقد صلى ثم أُخذ إلى بيت عائشــة، حيث كان يتنفل جالساً، ولما حانت صلاة العشاء.. حاول عليه السلام النهوض فلم يستطع.. حــاول مرة، ومرتين، لكن جســده لم يســاعده، فقد أقعده الألم، وأمســى يعاني من الإغماء تلو الإغماء، بينما كان الشوق يفتك بالصحابة.. ينتظرون خروجه بلهفة وحزن عظيمين. لكنه لم يخرج، ولم يستطع النهوض من مكانه. كانت عائشة رضي الله عنها تعانــي معه، وتحكي معاناته فتقــول: «ثقل النبي ﷺ فقال: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك. قال: ضعوا لي ماء في المخضب.

ففعلنا، فاغتســل، فذهب لينوء فأغمي عليه. ثم أفــاق فقال ﷺ: أصلى الناس؟ قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثــم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ قلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: ضعوا لي ماء في المخضب. فقعد، فاغتسل، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليــه، ثم أفاق فقــال: أصلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رســول الله، والناس عكوف في المسجد ينتظرون النبي عليه الصلاة والسلام لصلاة العشاء الآخرة.

فأرســل النبي ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس»[2] وعندما سمعت عائشة اسم أبيها على لســان النبي ﷺ، وهو يجعله أحق الصحابة بالصلاة، وإمامة المؤمنين، بعد أن جعله إمامهم جميعا في الحج شعرت ببعض القلق..

عائشة التي تحب أباها خشيت عليه من التشاؤم الذي لا مبرر له، إلا في حزنها، فهي مشــفقة على أبيها حزينة على زوجها.. ترحل بها الهموم والمخاوف فتقول للنبي عليــه الســلام: «إن أبا بكر رجل رقيــق، إذا قرأ غلبه البكاء، [إنــه رجل رقيق إذا قام مقامك لم يستطيع أن يصلي بالناس] فقال: مروه فيصلي، فعاودته.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١١.

(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

قال: مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف. [فقلت لحفصة قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فَمُرْ عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة. فقال رسول الله ﷺ: مه، إنكن لأنتن صواحب يوسف. مروا أبا بكر فليصل للناس. فقالت حفصة لعائشة: ما كنت لأصيب منك خيراً]»[1] وكأن حفصة ترى أن عائشة ورطتها حتى قال لها حبيبها ما قال.

ذهب المبعوث إلى أبي بكر «فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تصلي بالناس. فقال أبو بكر - وكان رجلاً رقيقاً -: يا عمر، صل بالناس. فقال له عمر: أنت أحق بذلك. فصلى أبو بكر»[2]

كانت ليلة ثقيلة على سماء المدينة وأهلها.. ليلة تخنق صدورهم بالهموم والتفكير بنبيهم، لكن، لعل هذا الفجر يحمل فرجاً.

وجاء الفجر فلم يستطع النبي ﷺ النهوض أيضاً، فصلى أبو بكر رضي الله عنه فجر الجمعة بالمؤمنين، وحان وقت صلاة الجمعة، فجاء المؤمنون من كل أطراف المدينة، وعاد أسامة، فكانت:

عودة أسامة بن زيد

ومن معه من الجيش إلى المدينة تعني تأجيل السفر، فلعلهم يحظون بخطبة النبي ﷺ والصلاة خلفه، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد خرج أبو بكر رضي الله عنه وسلم على المصلين، وارتقى درجات المنبر وخطب الناس.. فلا أدري أي شعور كان يخالجهم ويخالج أبا بكر وهم الذين اعتادوا على سماع صوته العذب على هذا المنبر منذ عشر سنوات، وهم يشعرون بأناته وآلامه خلف تلك الستارة الصغيرة.. لا يستطيع الحراك مما به من الألم، بل لا يستطيع حتى الكلام.. لا بد أن دموعاً غزيرة سالت، وشهقات علت، ونحيباً طال من الرجال والنساء جميعاً.

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤١ والزيادة له ١-٢٤٠ و١-٢٤٠.

(٢) صحيح البخاري ١ - ٢٤٣.

تهادت خطوات الأمير الأسمر (أسامة) رضي الله عنه إلى بيت النبي ﷺ يعوده، فكانت هذه القصة التي أبكت قلب أسامة وهو يقول: «لما ثقل رسول الله ﷺ هبطت، وهبط الناس معي إلى المدينة، فدخلت على رسول الله ﷺ وقد أصمت فلا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علي، فعرفت أنه يدعو لي»[1]

ومضى يوم الجمعة والنبي عليه السلام على فراشه لم يخرج، وجاء يوم السبت، فصلى أبو بكر الفجر، ثم جاء الظهر فصلى بهم أيضاً، فكانت المفاجأة عندما رأى المصلون

النبي ﷺ يخرج للصلاة

وذلك بعد أن أذن بلال رضي الله عنه وأقام الصلاة، فتقدم أبو بكر للصلاة وكبر وأمهم، وأثناء الصلاة خرج علي بن أبي طالب والعباس رضي الله عنهما.. يحملانه عليه السلام من غرفة عائشة التي تقول: «إن النبي ﷺ وجد من نفسه خفة فخرج بني رجلين أحدهما العباس لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر.. فأومأ إليه النبي ﷺ بأن لا يتأخر

قال: أجلساني إلى جنبه. فأجلساه إلى جنب أبي بكر، فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي ﷺ، والناس بصلاة أبي بكر والنبي ﷺ»[2] فتحول المسجد إلى ساحة من البهجة والسعادة التي لم تدم طويلاً. فقد أدخل عليه الصلاة والسلام إلى بيت عائشة من جديد.

يقول أنس رضي الله عنه: «إن رسول الله ﷺ صلى خلف أبي بكر في ثوب واحد، وبرد مخالفاً بين طرفيه. فلما أراد أن يقوم قال: ادع لي أسامة بن زيد فجاء فأسند ظهره إلى نحره»[3] فأخذه إلى بيته.. حيث تفاقم المرض عليه.. وكانت فاطمة وأمهات

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٦٧ حدثني سعيد بن عبيد بن السباق عن محمد بن أسامة عن أبيه أسامة. سعيد ومحمد بن أسامة تابعيان ثقتان التقريب٢٣٩ و ٤٦٧.

(٢) صحيح البخاري ١-٢٤٣.

(٣) سنده صحيح رواه البيهقي في الدلائل ٧-١٩٢ من طرق عن سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى ابن أيوب حدثنا حميد الطويل عن ثابت عن أنس وهذا السند على شرط البخاري وقد رواه كثيراً انظر مثلاً صحيح البخاري (١-١٥٧ و١-٢٠٩).

المؤمنين عليهن السلام لا يتوقفن عن زيارته، بينما كان الألم لا يتوقف عنه. وبعد أن خرج أسامة والعباس وعلي رضي الله عنهم رأى العباس بفراسته تقاسيم الموت في وجه النبي ﷺ.

خرجوا من عنده فـ«قال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت. اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا.

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده. وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»[1]

كان العباس وغيره لا يعلمون من خليفة النبي ﷺ، ولا كيفية انتخابه؟ فهم بل العرب كلهم لأول مرة يجتمعون تحت راية دولة واحدة. لذا كان العباس يريد معرفة من يخلف النبي ﷺ، لكن علياً كان أبعد نظراً، لأن الخلافة ليست منحة منه عليه الصلاة والسلام، وقد تحدث عليه الصلاة والسلام بكلام خطير ودقيق وهام عن الخلافة، وعن الصفات التي لا بد أن تتوافر في الخلفاء، وما يحل للخليفة، وما لا يحل له، وعن أنه لا يعطي الإمارة من سألها، وأشياء كثيرة قبل أن يأتي العباس إلى المدينة.

بينما لم يتحدث عليه السلام عن شخص بعينه يجب أن يتولى من بعده، مما يعني أنه سيترك للأمة أمر انتخاب الأصلح والأنسب. والصحابة رغم عدالتهم وجهادهم يظلون بشرا لهم وجهات نظر مختلفة، وآراء مختلفة، ومواهب مختلفة، ومزايا مختلفة، ولا يمكن أن يجمعوا على شخص بعينه. لكن هناك ميزات إذا جمعت برز صاحبها، كما برز أبو بكر الذي عينه عليه السلام للصلاة أكثر من مرة دون غيره، وعينه للحج بالأمة كلها.. ودون أن يسعى للإمامة، أو يقدم طلباً لها.

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٥.

النبـــي ﷺ هو الذي اختـــاره وعينه رغم رفضه لها في البدايـــة، وبعيداً عن ذلك وبينما كان عليه السلام تبرحه الآلام، وتزداد به الأوجاع ويزداد انشغالها بجسده.. كان مشغولاً بأمته.. مشفقاً عليها أن تضل كما ضلت اليهود والنصارى.

تقول عائشـــة ويقول ابن عباس رضي الله عنهما «لما نزل برســـول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه. قال -وهو كذلك-: لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا»[1]

فبعـــد وفاة أي نبي تزداد العاطفة، وتجيش المشـــاعر، فتطيـــش بدعاً وخرافات، وزخارف ومزارات.. حتى يتحول ضريحه من قبر إلى وثن يطاف به ويتمسح، ويستقبل، وتشد الرحال إليه، ويذبح عنده، وتحيط به السرج والشموع والمصابيح، ويطلى بالذهب ويرصـــع بالجواهر. وفي النهاية ينصرف الناس عن الخالق، ليتعلقوا بمخلوق لا يملك من أمره شـــيئاً إلا ما وهبه الخالق ســـبحانه وحباه به. عندها ينهدم ما بناه النبي ﷺ خلال أكثر من عشـــرين عاماً، ويتسرب الشرك من جديد، لكن بدلاً من عبادة الصنم الذي على شـــكل صورة، يصبح وثناً على شـــكل قبر، وبالتبرير نفسه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾.

كان عليه الســـلام يخشـــى ذلك ويحذر منه.. رغم ما هو فيه من المعاناة والحمى، التي يزداد اشتعالها داخل جسده الشريف، مما أعجزه عن الخروج للصلاة، حيث صلى أبو بكر في الناس العصر والمغرب والعشاء والفجر، والناس يترددون على المسجد، وفي الطرقات وفي الأسواق فلا يرون حبيبهم ونبيهم فيها، فيزداد شوقهم وحزنهم حتى:

جاء يوم الأحد

وتوالـــى الزائرون من أهل بيتـــه وغيرهم، وكانت ابنته فاطمة عليها الســـلام في طريقها إلى هناك.. تنظر إلى هذا الأب الحاني فتدمع عينها، وتبكي وتتأثر لما هو فيه من الكرب، فيناديها ليخفف ما بها من حزن، ويهمس في أذنها، فتبكي مرة أخرى، ثم يهمس مرة ثانية فتبتسم ابتسامة تسرها وتحزن أحبابها.

---

(١) صحيح البخاري ١-١٦٨.

كانت عائشـــة الوفية هناك.. مأخوذة بهذا المشهد الحزين المبتسم.. هذا المشهد الذي لم يفارق قلبها وذاكرتها وعجبها فتقول: «أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: مرحباً بابنتي. ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله. ثم أسر إليها حديثاً فبكت. فقلت لها: لم تبكين؟

ثم أســـر إليها حديثاً فضحكـــت. فقلت: ما رأيت كاليوم فرحـــاً أقرب من حزن. فسألتها عما قال؟

فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ.

حتى قبض النبي ﷺ، فسألتها؟ فقالت: أسر إلي إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت.

فقال أما ترضين أن تكوني ســـيدة نســـاء أهل الجنة، أو نساء المؤمنين؟ فضحكت لذلك»[1]

حفظت عائشة منزلة فاطمة عليها السلام، حين امتزجت مشاعر الحزن بالسرور فـــي أعماق فاطمة، التـــي نهضت ثقيلة بعد ذلك إلى بيتهـــا وطفليها.. ولا أدري كيف كانت نظرات طفليها وهما يشـــاهدان جدهما لا يستطيع اللعب معهما، أو حملهما كما كان يفعل بالأمس إلى المســـجد.. ينظران إليه وينظر إليهما، لكنه لا يستطيع أكثر من التبسم في وجهيهما العذبين.. أي حزن يطوف بتلك الأعين البريئة.. وأي أسئلة أبكت أمهما وهي في طريقها إلى بيتها.. هل ستعود تلك الأيام الجميلة المفعمة بالمرح والفرح واللعب مع جدهما.. أم أنه سيرحل هذه المرة؟

تبكي فاطمة، ويقبل الليل ويخيم الحزن على المدينة، وتعاود الآلام حبيبها وناشـــر الحب بين جدرانها وبيوتها، وتعود فاطمة فتجده ثقيلا، و«لما ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة عليها السلام: واكرباه. فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم»[2]

وينزاح ذلك الليل شيئاً فشيئاً، ويزداد الألم به شيئاً فشيئاً.

---

(١) صحيح البخاري ج: ٣ ص: ١٣٢٦.
(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

ويدخل فجر يوم الإثنين

ويصلى أبو بكر بالمؤمنين الفجر، فيحدث شـــيء مفرح كاد معه المصلون أن يفتنوا في صلاتهم، فبينما كان أبو بكر خاشعاً في صلاته ارتفع الستر الذي على يساره، وهو ستر بيت ابنته عائشة، فأطل الحبيب منها وهو يبتسم.

يقـــول أنس: «إن أبا بكـــر كان يصلي لهم في وجع النبي ﷺ الذي توفي فيه، حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة، فكشـــف النبي ﷺ ســـتر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح برؤية النبي ﷺ.

فنكص أبو بكر علـــى عقبيه ليصل الصف، وظن أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا النبي ﷺ أن أتموا صلاتكم.

[فقال: أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو تـــرى له. ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ســـاجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فقَمِنٌ أن يستجاب لكم].

وأرخى الستر»[1] وعاد إلى فراشه فصلى الفجر، ثم ضعف ضعف:

الموت

الذي لا ينتظر أحداً من البشـــر.. حتى الأنبياء منهم، وفي لحظات الكرب وشدة ســـكرات الموت.. كانت فاطمة تشاهد حركة أبيها من شدة الألم، وذلك «لما ثقل رسول الله ﷺ، جعل يبسط رجلاً ويقبض أخرى، ويبسط يداً ويقبض أخرى.

قالت فاطمة: يا كرباه لكربك يا أبتاه...

قال رســـول الله ﷺ: أي بنية، لا كرب على أبيـــك بعد اليوم»[2] ثم رفع طرفه إلى السماء، وكأنه يرى منزله من الجنة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٢٤٠ والزيادة عند مسلم ١-٣٤٨.

(٢) ســـنده صحيح رواه أبو يعلى ٦-١١١ حدثنا القواريري حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت البناني عن أنس. عبيد الله بن عمر القواريري وشيخه ثقتان ثبتان التقريب ٣٧٣ و ١٧٨.

تقــول عائشــة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقــول وهو صحيح: إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير. فلما نزل به ورأسه على فخذي غشي عليه، ثم أفاق، فأشخص بصره إلى سقف البيت ثم قال: اللهم الرفيق الأعلى. فقلت: إذاً لا يختارنا. وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا»[1].

وتقول رضوان الله عليها: «كان رســول الله ﷺ إذا اشــتكى منا إنســان مســحه بيمينه، ثم قال: أذهب البأس رب الناس، واشــف أنت الشــافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.

فلما مرض رسول الله ﷺ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: اللهم اغفر لي، واجعلني مع الرفيق الأعلى»[2] «وأخذته بحة وهو يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشــهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

قالت: فظننته خير حينئذ»[3]

وهنا دخل عبد الرحمن بن أبي بكر أخو عائشــة، وفي يده سواك فكان النبي ﷺ ينظر إلى السواك في يده، فتقول عائشة: «دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به، فنظر إليه رسول الله ﷺ [وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك فأشار برأسه.. أن نعم.

فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟ فأشار برأسه أن نعم][4] فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن. فأعطانيه فقضمته.

ثــم مضغتــه»[5] «ونفضته وطيبته، ثم دفعته إلى النبي ﷺ، فاســتن به، فما رأيت رسول الله ﷺ استن استناناً قط أحسن منه، [وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦٢٠.
(٢) صحيح مسلم ٤-١٧٢١.
(٣) صحيح مسلم ٤-١٨٩٣. وكلمة (هو) ليست في النص.
(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.
(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه. يقول: لا إله إلا الله إن للموت سكرات][1]. فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه، ثم قال:

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

في الرفيق الأعلى

ثم قضى»[2] «ومالت يده»[3] «فمات في اليوم الذي كان يدور علي فيه في بيتي. فقبضه الله، وإن رأسه لبين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقي»[4] «في آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة»[5] «فلما خرجتْ نفسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها»[6]. عندها بكت فاطمة والدها بحرقة.. بكته بقلبها ودمعها وقالت: «يا أبتاه أجاب رباً دعاه

يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه»[7]

أما عائشة الشابة المفجوعة، فقد أذهلها ما حدث، وتحدثت عن ذهولها فقالت: «مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري، وفي بيت لم أظلم فيه أحداً، فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت ألدم مع النساء وأضرب وجهي»[8].. بكت أمهات المؤمنين، وبكت النساء، وبكى الرجال، ولم يبك عمر بن الخطاب. بل قام يخطب غاضباً فيمن حوله، ومهدداً من يقول أن رسول الله ﷺ قد مات. فطلب بعض الصحابة من رجل من أهل الصفة اسمه

---

(١) صحيح البخاري ٤-١٦١٦ وجاء بعد كلمة (علبة) يشك عمر.

(٢) صحيح البخاري ٤-١٦١٣.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٦.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٥) صحيح البخاري ٤-١٦١٧.

(٦) سنده صحيح رواه أحمد ٦-١٢١ ثنا عفان ثنا همام أنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة عفان ثقة ثبت التقريب ٣٩٣ وشيخه بن دينار ثقة وبقية السند لا يسأل عنه وقد مر كثيراً.

(٧) صحيح البخاري ٤-١٦١٩.

(٨) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي الدلائل ٧-٢١٣ حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه سمعت عائشة. يحيى ووالده ثقتان وقد مر معنا كثيراً.

(سالم بن عبيد) أن ينادي أبا بكر، فقد اشتد غضب عمر حتى لقد قال من شدة الصدمة: «لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فسكتوا، وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله.

قالوا: يا سالم، اذهب إلى صاحب النبي ﷺ فادعه.

قال سالم: فخرجت فوجدت أبا بكر قائماً في المسجد[1].

قال أبو بكر: مات رسول الله ﷺ؟ قلت: إن عمر يقول: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا.

فوضع يده على ساعدي، ثم أقبل يمشي حتى دخل، فوسعوا له حتى أتى النبي ﷺ فأكب عليه حتى كاد أن يمس وجهه وجه النبي ﷺ، حتى استبان له أنه قد مات.

فقال أبو بكر: إنك ميت وإنهم ميتون»[2].

وصل أبو بكر من بيته الذي يقع في مكان شرقي المدينة يقال له (السنح) «أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم[3] رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين. أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها»[4] ثم:

خرج أبو بكر في وقت أبي بكر

خرج إلى هذه الجموع المفجوعة بنبيها، فشاهد عمر يهدد من يقول أنه مات، ويهدد المنافقين بأن النبي ﷺ سوف يعود ليمزقهم، فرجع بعضهم عن النفاق. لكن

---

(١) مسجد خاص به في منطقة السنح.

(٢) سنده صحيح رواه النسائي في الكبرى ٤-٢٦٣ أنبأ قتيبة بن سعيد حدثنا حميد ابن عبد الرحمن عن سلمة بن نبيط عن نعيم عن نبيط عن سالم بن عبيد. ونبيط صحابي صغير ونعيم تابعي ثقة: التقريب ٥٦٥ وهو ابن أبي هند وتلميذه ثقة: التقريب ١-٣١٩ وحميد الرواسي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٢٤٨ وقتيبة ثقة ثبت: التقريب ٤٥٤.

(٣) أي توجه نحوه.

(٤) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

كلمات عمر كانت كلمات مفجوع مصدوم.. كان ظرفاً ليس له سوى أقرب الناس من النبي ﷺ، وأكثرهم صحبة له.

خرج أبو بكر بحزن ويقين كالجبال، ليزيل عن العقول كلمات عمر، وتخاريف الفاجعة. أخذ الأمة مما هي فيه إلى كتاب الله، فأفاقت العقول، ورضيت بقضاء الله. لم ينههم عن الحزن ولا عن البكاء، ولكن نهاهم عن الاستسلام للعواطف، والانجراف في تيارها، فيهلكون كما هلكت الأمم السابقة. فما هي:

خطبة عمر

تقول عائشة: «فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ، فقبله. قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً. والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً.

ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك. [وعمر رضي الله عنه يكلم الناس. فقال: اجلس. فأبى. فقال: اجلس. فأبى.

فتشهد أبو بكر رضي الله عنه. فمال إليه الناس وتركوا عمر][1] فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ، فإن محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

فنشج الناس يبكون»[2] بكاء المفجوع الذي أدرك الحقيقة، وأفاق مما هو فيه من صدمة.

---

(١) صحيح البخاري ١-٤١٩.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٣٤١.

كان ابن عباس هناك، وقد وصف حال الصحابة بعد خطبة أبي بكر فقال: «والله لـكأن الناس لم يعلموا أن الله أنـزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها من الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها»[1]

كان أبـو بكر رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة.. أعاد الأمة إلى صوابها، وقال لها في غياب نبيها المفجع: إن هذا النبي الحبيب يظل بشـراً وعبداً لله، وأن الغلو فيه ليس من صفات المؤمنين، وليس من هديه عليه السـلام. فلم يبق سـوى الصلاة عليه، واتباع رسالته والمشي على خطاه، وما عدا ذلك فهو من الغلو الذي قال عنه النبي ﷺ وهو حي: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده. فقولوا: عبد الله ورسوله»[2]

أمـا عمـر رضي الله عنه، فكان أكثر المسـتجيبين لتلك الآيـات، وأكثر المتأثرين بخطبة أبي بكر، لدرجة أنه سـقط على الأرض من شدة التأثر، يقول رضي الله عنه: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها. علمت أن النبي ﷺ قد مات»[3]

كانت تلك اللحظات شـديدة الدقة والخطورة والحـزن، فقد رحل النبي ﷺ عن الدنيا، وهـي مصيبة ما بعدها مصيبة. كما كان هناك أيضاً الفراغ الهائل الذي تركه من بعده.. حيث إن الأمة اليوم دون قائد يرأسها. وهذا الفراغ يكون أكثر خطورة على الأمة إذا كان الراحل قائداً عظيماً، فكيف إذا كان الراحل اليوم ليس مجرد قائد عظيم فحسب، بل نبي يأتيه الوحي من السماء، وتحمله الأمة كلها في قلوبها.

شعر بعض رجالات الأنصار بهذا الفراغ، فرشحوا سعد بن عبادة لخلافة النبي ﷺ، بينما توجه علي بن أبي طالب والزبير بن العوام حزينين إلى بيت فاطمة، في الوقت الذي كان فيه أبو بكر مشغولاً بالأمة، والأمة مشغولة بفجيعتهاوبحزنها على نبيها. لكن أبا بكر يتجدد عظمة في مثل هذه الظروف الحرجة والعصيبة.

---

(١) صحيح البخاري ٤ - ١٦١٨.

(٢) صحيح البخاري ٣-١٢٧١.

(٣) صحيح البخاري ٤-١٦١٨.

انطلق رضي الله عنه إلى حيث أخوانه الأنصار، بعد أن سمع باجتماعهم ليرى ما يجري هناك.. خشية أن تفترق الأمة بعد توحيدها، أو تتمزق بعد تلاحمها، أو أن تقع فتنة بين الأنصار والمهاجرين الذين التفوا حول أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً.

ولما وصل أبو بكر وجدهم قد التفوا حول رجل مريض، وقد غطوه. كان ذلك الرجل هو الصحابي الجليل سعد بن عبادة، وهم يريدون مبايعته بالخلافة. لكن عمر بن الخطاب كان له رأي آخر، في ذلك المكان الذي اجتمع فيه الأنصار والمهاجرون والمسمى بـ:

سقيفة بني ساعدة

دعونا نتجه إلى سقيفة بني ساعدة، والذي سيأخذنا إلى هناك شاب من أهل بيت النبي ﷺ.. هو عبد الله بن عباس الذي يقول إن عمر بن الخطاب قال: «كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا، واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة، وخالف عنا علي والزبير ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: يا أبا بكر، انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، [فاجتمع المهاجرون يتشاورون، فبينا هم كذلك يتشاورن إذ قالوا: فانطلقوا بنا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً] فانطلقنا نريدهم، فلما دنونا منهم لقينا منهم رجلان صالحان. فذكرا ما تمالأ عليه القوم فقالا: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ فقلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا: لا عليكم أن لا تقربوهم، اقضوا أمركم. فقلت: والله لنأتينهم.

فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا رجل مزمل بين ظهرانيهم فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا سعد بن عبادة. فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك.

فلما جلسنا قليلاً تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم معشر المهاجرين رهط، وقد دفت دافة من قومكم، فإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا، وأن يحضنونا من الأمر.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني، أردت أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد. فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك.

فكرهـــت أن أغضبه. فتكلم أبو بكر، فكان هو أحلم مني وأوقر، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بديهته مثلها، أو أفضل منها، حتى سكت.

فقال: ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم.

فأخـــذ بيدي، وبيد أبـــي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننـــا، فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم، أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، اللهم إلا أن تسول لي نفسي عند الموت شيئاً لا أجده الآن.

فقـــال قائل من الأنصار: أنا جذيلهـــا المحكك، وعذيقها المرجب، منا أمير، ومنكم أمير يا معشر قريش.

فكثـــر اللغط وارتفعت الأصوات حتى فرقـــت من الاختلاف. [فأتاهم عمر رضي الله عنه فقال: [ســـيفان في غمد واحد!! إذاً لا يصطلحا]، يا معشـــر الأنصار، ألستم تعلمون أن رســـول الله ﷺ قد أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤم الناس؟ فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر رضي الله عنه؟

فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر رضي الله عنه][1]. [قلت: يا معشـــر الأنصار، يا معشـــر المســـلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ﷺ ثاني اثنين إذ هما في الغار، أبو بكر السباق المتين. [من هذا الذي له هذه الثلاث:

إذ هما في الغار، من هما؟

إذ يقول لصاحبه، من صاحبه؟

لا تحزن إن الله معنا، مع من هو؟

فبسط عمر يد أبي بكر رضي الله عنهما فقال: بايعوه.

---

(١) ســـند الزيادة حســـن رواه أحمد ١-٢١ وغيره من طرق عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود وعاصم ابن أبي النجود إمام القراء حســـن الحديث من رجال الشـــيخين التقريـــب ١-٣٨٣ والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

فبايع الناس أحسن بيعة وأجملها] ثم أخذت بيده، وبدرني رجل من الأنصار فضرب على يده قبل أن أضرب على يده][1] فقلت: أبسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته، وبايعه المهاجرون، ثم بايعته الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة.

فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة.

فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال عمر: وإنا والله ما وجدنا فيما حضرنا من أمر أقوى من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يبايعوا رجلاً منهم بعدنا، فإما بايعناهم على ما لا نرضى، وإما نخالفهم، فيكون فساد، فمن بايع رجلاً على غير مشورة من المسلمين، فلا يتابع هو ولا الذي بايعه»[2]

كل هذه الأحداث جرت بسرعة كبيرة، خلال يوم الاثنين الذي مر بحزن وسلام، فقد أصبح للدولة الإسلامية قائد جديد وللمسلمين إمام كفوء لقيادتها، وفي زمن قياسي، وباقتناع الأكثرية.. تقبل الأنصار قيادة أبي بكر المهاجر إلى أرضهم، لأنهم رجال تثقفوا بالكتاب، والسنة وآمنوا بالله ورسوله، ورضوا أن يؤمهم رجل ارتضاه لهم النبي ﷺ، وهو حي بين أظهرهم، فيكف لا يرضونه بعد مماته.

ارتضوه وهم الذين ما كانوا ليقبلوا رجلاً من غيرهم، لو لم يتشبعوا بالتربية الإسلامية العظيمة، بل ما كان الأوس ليقبلوا عليهم زعيماً من الخزرج، ولن يرضى الخزرج أن يتأمر عليهم زعيم من الأوس لو كانوا لا يزالون على ثقافتهم الخشبية الجاهلية.. ثقافة الأصنام التي أزاحها الإسلام عن قلوبهم وعقولهم إلى غير رجعة.

أما أبو بكر فلم يشغله حزنه على نبيه عن مسؤوليته الضخمة تجاه أمته، فهذا الرجل العظيم هو الذي أعاد للمفجوعين رشدهم، وهو الذي ساقته طول صحبته لنبيه

---

(١) سند الزيادة صحيح رواها ابن إسحاق ومن طريق الضياء في المختارة ١-٢٨٨ حدثني عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس عن عمر قال وهو سند صحيح فعبد الله بن حزم الأنصاري تابعي صغير وثقة من رجال الشيخين وبقية السند سند البخاري والمعقوفان داخله من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٥٠٦.

عليه السلام إلى النظر للأمور بمنظار أبعد وأكثر اتساعاً، فاستحق أن يواصل صلاته بالأمة الظهر والعصر وبقية الصلوات، بعد أن استقر الوضع السياسي، ليعود للنفوس كمدها وحزنها على نبيها ﷺ في يوم أسود، عاشه أنس بن مالك فقال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»[1]

ومضى ذلك اليوم لترحل شمس الاثنين بالفتنة جثة هامدة.. مضى الإثنين الحزين

وجاء يوم الثلاثاء

وقبل أن يصلي أبو بكر في الناس صلاة الصبح.. قام عمر فتوجه إلى المنبر مخاطباً الصحابة، ومعتذراً عما بدر منه بالأمس من أقوال، وداعياً بقية الصحابة لمبايعة أبي بكر رضي الله عنه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «إنه سمع خطبة عمر الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي النبي ﷺ، فتشهد، وأبو بكر صامت لا يتكلم.

قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا - يريد بذلك أن يكون آخرهم - فإن يك محمد ﷺ قد مات، فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نوراً تهتدون به، بما هدى الله محمداً ﷺ، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ ثاني اثنين، فإنه أولى المسلمين بأموركم، فقوموا فبايعوه. وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر»[2]

وبعد أن انتهى عمر من خطبته نزل عن المنبر، وطلب من أبي بكر الصعود كي يبايعه المؤمنون، لكن أبا بكر رفض، فلم يزل عمر يلح عليه حتى صعد.

يقول أنس: «سمعت عمر يقول لأبي بكر يومئذ: اصعد المنبر.

---

(١) سنده صحيح رواه الترمذي ٥-٥٨٨ وغيره من طريق جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس، جعفر صدوق زاهد : التقريب ١-١٣١ وشيخه تابعي ثقة سمع من أنس.

(٢) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

فلـم يزل به حتـى صعد المنبر فبايعه الناس عامة»[1] «فبايـع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السـقيفة، [فلما قعد أبو بكر رضي الله عنه على المنبر نظر في وجوه القوم، فلم ير علياً رضي الله عنه، فسـأل عنه؟ فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ابن عم رسـول الله ﷺ وختنه أردت أن تشـق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ.

ثـم لم ير الزبير بن العوام رضي الله عنه، فسـأل عنه حتى جاءوا به، فقال: ابن عمة رسول الله ﷺ، وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله.. فبايعاه]

فتكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد أيها الناس، فإني قد وليت عليكم ولسـت بخيركم، فإن أحسـنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني... الصـدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قـوي عندي، حتى أريح عليه حقه إن شـاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي، حتى آخذ الحق منه إن شـاء الله. لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء.

أطيعوني ما أطعت الله ورسـوله، فإذا عصيت الله رسـوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[2]

فنهـض الجميع إلى الصلاة خلف أبي بكر وقد اطمأنوا، فالأمة قد اجتمع أمرها على خليفة لرسول الله، ليعود الحزن إليهم ورسول الله ﷺ مازال مسجى لم يدفن بعد، وقـد فقدوا الأمل بعودته ليؤمهم في الصلاة مـرة أخرى.. فخالطت صلاتهم الدموع والوجد على أرحم الناس بهم، وأحناهم وأكثرهم رفقاً، ونشج البعض وهم يرون مكانه ومنبره، وبكى الأطفال الحسـن والحسين وأمامة، فجدهم لن يحملهم إلى المسجد بعد

---

(١) صحيح البخاري ٦-٢٦٣٩.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة ٦-٨٢ حدثني الزهري حدثني أنس. الزهري أوثق طبقته، والمقطع الذي بين المعقوفين سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٨٠ والبيهقي في الكبرى ٨-١٤٣ من طرق عن وهيب ثنا داود بن أبي هند ثنا أبو نضرة عن أبي سـعيد الخدري. أبو نضرة اسـمه المنذر بن مالك بن قطعة تابعي ثقـة: التقريـب ٥٤٦ وداود تابعي صغير وثقة متقن: التقريب ٢٠٠ وتلميذه وهيب بن خالد بن عجلان ثقة ثبت، التقريب ٥٨٦.

اليوم، وازداد وجع أهل الصفة على الرحمة المهداة.. على من كان يقاسمهم شربة اللبن وكسرة الرغيف، ويواسيهم بابتساماته وكلماته عندما يجوع مثلهم، فلا يجد لبطنه الخالي سوى حجر يربطه عليه.

وبعد أداء الصلاة استيقظت بقية الأوجاع من جديد، وتعالى النشيج وعاد الذهول، فقد حانت لحظات الوداع الأخيرة.. حان موعد الوداع المرير الذي لا يطاق.. وبدأ الإعداد لـ:

تغسيله ﷺ وتكفينه

فقد قال أبو بكر رضي الله عنه لأبناء عمه ﷺ: «دونكم صاحبكم (لبني عم رسول الله ﷺ) يعني في غسله يكون أمره»[1]

وكان ذلك في آخر النهار، فكان الذي تولى تغسيله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا أدري بالتحديد من هم الصحابة الذين شاركوه في تغسيله من أبناء عمومته، لكنهم كانوا في حيرة من أمرهم قبل أن يبدأوا بتغسيله عليه السلام.. هل يخلعون ثيابه، أم يغسلونه في ثيابه التي مات بها..؟

وقد كانت هذه الثياب «إزار غليظ مما يصنع باليمن، وكساء من التي يسمونها الملبدة»[2] وعائشة رضي الله عنها «تقسم بالله إن رسول الله ﷺ قبض في هذين الثوبين»[3] وبينما هم في حيرتهم تلك نزلت

آخر المعجزات عند غسله

تقول عائشة رضي الله عنها: «لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟

فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أن اغسلوا النبي وعليه ثيابه.

---

(١) جزء من حديث سالم الصحيح وهذه رواية البيهقي ٨-١٤٥.

(٢) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

(٣) صحيح مسلم ٣-١٦٤٩.

فقاموا إلى رسول الله فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم»[1] أي أنهم يدلكون القميص على جسده الطاهر عليه الصلاة والسلام بعد سكب الماء على الثوب، وكان علي رضي الله عنه يتأمل رسول الله ﷺ وهو يغسله، وكأنه يبحث عن شيء فيقول: «غسلت رسول الله ﷺ، فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً ﷺ»[2] وبعد أن انتهوا من غسله ندمت عائشة قائلة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسله إلا نساؤه»[3] أي أنها تمنت لو غسله نساؤه، فهن في نظرها أولى من الرجال، وكأنها تتذكر ابتسامته عليه السلام لها قبل أسبوع وحديثه العذب عندما «رجع إلي رسول الله ﷺ ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وارأساه.

قال: بل أنا يا عائشة وا رأساه ثم قال: وما ضرك لو مت قبلي فغسلتك وكفنتك وصليت عليك ثم دفنتك..؟

قلت: لكأني بك أن لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك. فتبسم رسول الله ﷺ»[4] وكأنها فهمت من هذا الحديث أن تغسيل الزوج لزوجته والعكس هو الأولى، لكن ذلك لم يحدث، وشرف الله علياً ومن معه بتغسيل نبيه، وفي آخر غسلة قام بها:

مزج الماء بالكافور

في آخر غسلة لجسد النبي ﷺ وهي التي أرشد إليها عليه السلام من يغسلون الموتى وهي تساعد على نقاء جسد الميت ونظافته، وقد حضر الصحابي عبد الله بن

---

(١) سنده صحيح مر معنا كثيرا رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٤ ومن طريقه الطبري ٢-٢٣٩ وغيره: حدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة.

(٢) سنده صحيح رواه الحاكم ٣-٦١ والبيهقي في الدلائل ٧-٢٤٣ والكبرى ٣-٣٨٨ من طرق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن علي رضي الله عنه وسعيد إمام طبقته وكذلك تلميذه ومعمر بن راشد إمام ثقة ثبت فاضل انظر التقريب ٢-٢٦٦.

(٣) هو آخر حديث عائشة السابق عند ابن إسحاق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه ابن حبان ١٤-٥٥١ وغيره وقد مر معنا عند الحديث عن بداية مرضه ﷺ.

مغفـــل رضي الله عنه ذلك العمل فروى ذلك لمن حوله قائلا: «إذا أنا مت فاغســـلوني واجعلوا في آخر غسلة كافوراً»[1] ثم قال: «فإني رأيت رسول الله ﷺ فعل ذلك به»[2]

وبعد أن انتهى علي ومن معه من تغسيله ﷺ قام بـ

تطييبه عليه السلام

فقد طيبه بمســـك ثم احتفظ بباقيه، كي يحنط به عند موته. يقول أحد أصحاب علي: «كان عند علي مســـك فأوصى أن يحنط به، وقال علي: وهو فضل حنوط رسول الله ﷺ»[3] أي باقي المسك الذي طيب به النبي ﷺ، ولما انتهوا من تطييبه بدأوا بـ:

تكفينه ﷺ

فجاء عبد الله بن أبي بكر الصديق بحلة يمانية غالية.. اشتراها لكي يكفن فيها النبي ﷺ، فكفن فيها، ثم تشـــاور الصحابة، فأحســـوا بأن الأمر فيه تكلف، فنزعوها عنه، ثم كفن عليه الصلاة والســـلام في ثلاث أثواب قطنية بسيطة.. ليس من ضمنها قميص أو عمامة.

تقول عائشة رضي الله عنها: «كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرســـف، ليس فيها قميص ولا عمامة، أما الحلة فإنما شـــبه على الناس فيها أنها اشـــتريت له ليكفن فيها، فتركت الحلة، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، فأخذها عبد الله بن أبي بكر فقال: لأحبسنها حتى أكفن فيها نفسي.

---

(١) ســـنده حســـن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٢) ســـنده حســـن رواه الروياني٢-٩٥ والحاكم ٣-٦٧٠ والخطيب في تاريخ بغداد ٤-٢٨ من طريق مسلم بن إبراهيم نا صدقة بن موسى نا الجريري عن عبد الله بن بريدة أن عبد الله ابن مغفل وابن بريدة تابعيان ثقتان وصدقة حسن الحديث إذا لم يخالف: التقريب ١-٣٦٦ ومسلم ثقة مأمون مكثر.

(٣) ســـنده صحيح رواه الحاكم ١-٥١٥ وغيره من طريق: حميد بن عبد الرحمن الرواســـي ثنا الحســـن بن صالح عن هارون بن سعد عن أبي وائل قال وأبو وائل مخضرم ثقة وتلميذه العجلي صدوق رمى بالتشيع والرفض وقيل رجع عنه: التقريب: ٢-٣١١ والحســـن بن صالح ثقة فقيه عابد رمي التقريب ١٦١ وحميد ثقة من رجال الشيخين التقريب ١٨٢.

ثم قال: لو رضيها الله عز وجل لنبيه لكفنه فيها، فباعها وتصدق بثمنها»[1].

ولما فرغوا رضي الله عنهم من تكفينه أرادوا:

الصلاة عليه

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قد سألوا أبا بكر فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ..؟ قال: نعم»[2] وكان بيت النبي ﷺ ومسجده محاطاً بجموع الصحابة رجالاً ونساء وأطفالاً ينتظرون الصلاة عليه، لكن بيت عائشة لا يتسع لهم جميعاً، فقد قدم صحابة من أطراف المدينة وما حولها، ولا يمكن أن تحرم هذه الجموع المحبة المفجوعة من الصلاة على نبيها ووداعه والدعاء له، فسألوا أبا بكر رضي الله عنه عن كيفية الصلاة على النبي ﷺ..؟ فقالوا: «يا صاحب النبي ﷺ، هل يصلى على النبي ﷺ قال: نعم. قالوا: وكيف يصلى عليه؟ قال: يدخل قوم فيكبرون ويدعون ويجيء آخرون»[3]

فنظموهم مجموعات مجموعات، وحددوا أحد أبواب عائشة للدخول، وآخر للخروج بعد أداء الصلاة. يقول أحد الذين شاهد تدفق أمواج الحب تلك: «لما قبض رسول الله ﷺ قالوا: كيف نصلي عليه؟

قالوا: ادخلوا من ذا الباب أرسالاً أرسالاً، فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر»[4] فتحولت الحشود إلى مجموعات صغيرة ودخلت بترتيب وسكينة وخشوع مخضبة بالدموع والبكاء، فتحول المسجد وبيت عائشة إلى ساحة من النحيب والأنين، والرضا بقضاء الله والحمد للذي لا يحمد على مكروه سواه، ولا أدري ما حال المكان بعد دخول أمهات المؤمنين وبقية النساء.. لا أدري ما حال الفقراء والمساكين وأهل الصفة وهم يصلون على كافلهم والحاني عليهم..؟ وكيف هي حال المدينة كلها في ذلك اليوم الثقيل المؤلم..؟

---

(١) صحيح مسلم ٢-٦٤٩.

(٢) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٣) جزء من حديث سالم بن عبيد السابق.

(٤) سنده صحيح رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٢-٢٨٩ أخبرنا عفان بن مسلم والأسود بن عامر قالا أخبرنا حماد بن سلمة قال أخبرنا أبو عمران الجوني أخبرنا أبو عسيم شهد ذلك.. وأبو عمران الجوني هو عبد الملك بن حبيب تابعي ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٥١٨ وحماد إمام معروف وكذلك تلميذه عفان والأسود هو المعروف بـ: شاذان وهو ثقة من رجال الشيخين: التقريب ٧٦.

انتهى الرجال والنســـاء والأطفال من الصلاة على النبي ﷺ، فإذا الدنيا مســـاء، وإذا الشمس قد غربت فلم يجدوا بداً من:

دفنه ليلاً

في غرفة عائشـــة، وذلك لأنه المكان الذي توفي فيه، وقد ســـألوا أبا بكر عن ذلك فقالـــوا: «يا صاحب النبي ﷺ هل يدفن النبي ﷺ؟ قال: نعم. قالوا: وأين يدفن؟ قال: في المكان الذي قبض الله فيها روحه، فإنه لم يقبض روحه إلا في مكان طيبة»[1]

وتقول عائشة رضي الله عنها: «لما مات النبي ﷺ قالوا: أين يدفن فقال أبو بكر: فـــي المكان الذي مات فيـــه»[2] لكن الصحابة قد تحيروا من ذهولهم في كيفية شـــكل قبره.. هل يضرحون له أم يلحدونه..؟

تقول عائشـــة الحزينة.. عائشة التي فقدت دلال حبيبها وعنايته: «لما توفي رسول الله ﷺ كان رجل يلحد، وآخر يضرح فقالوا: نســـتخير ربنا، فبعث إليهما فأيهما سبق تركناه فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللحد فألحدوا له»[3]

والضريح شـــق مستطيل في الأرض، أما اللحد فشـــق مستطيل كذلك، ولكن في أسفله، وبالتحديد في جهة القبلة منه ميل في زاوية القبر، يوضع فيها الميت على جنبه الأيمن تجاه القبلة.

وصل الرجل الـــذي يلحد، فحفر لحداً للنبي ﷺ، وعاونه بعض الصحابة.. كانت المساحي تحفر قلب عائشة ومن معها، وتدمي قلوب المؤمنين والمؤمنات الساهرين حول بيت نبيهم ﷺ.

---

(١) جزء من حديث سالم بن عبيد الصحيح.

(٢) ســـنده صحيح رواه ابن ســـعد ٢-٢٩٢ أخبرنا أبو الوليد الطيالســـي أخبرنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشـــة وأبو الوليد الطيالســـي هو هشـــام بن عبد الملك ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب وبقية السند على شرط مسلم ١٨٣٦.

(٣) سنده قوي رواه أحمد ٣-١٣٩ وابن ماجه ١-٤٩٦ من طريق المبارك بن فضالة حدثني حميد الطويل عن أنس بن مالك والمبارك صدوق وهو مدلس لكنه صرح بالسماع من شيخه التابعي الثقة حميد الطويل وله شاهد قوي صحيح السند رواه ابن سعد بالسند السابق.

تقول عائشة رضي الله عنها: «ما شعرنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من آخر الليل»[1]، وكان عدد الذين دخلوا القبر أربعة رجال أو أكثر.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه دخل قبر النبي ﷺ علي والفضل وأسامة»[2] وقال أحد الصحابة: «إنهم أدخلوا عبد الرحمن بن عوف، فكأني أنظر إليهم في القبر أربعة»[3] «كأني أنظر إليهم في قبر النبي ﷺ أربعة، علي والفضل وعبد الرحمن بن عوف وأسامة أو عباس»[4] وبعد أن أتموا حفر قبره الشريف ودخلوه.. فرشوا على أرض القبر كساء أحمر يسمى قطيفة.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «جعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»[5].

وبعد أن فرشت تلك القطيفة قال علي رضي الله عنه: «إنما يلي الرجل أهله»[6] ويبدو أن عبد الرحمن خرج متأثراً من القبر، فنزل بدلاً منه قثم بن العباس رضي الله عنهم جميعاً، وحانت ساعة الوداع المريرة.. حان وضع الحبيب في قبره، فلن تراه العيون بعد اليوم إلا يوم القيامة.. حانت ساعة النحيب المر في ليلة كان السهر والحزن هو الجليس لأهل المدينة، حيث حمل النبي ﷺ فاستلمه علي ومن معه في القبر، فأدخلوه في اللحد على جنبه الأيمن باتجاه القبلة، ثم جعلوا اللِّبْنَ منصوباً على اللحد، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يشهد المنظر ويقول لمن حوله: «ألحدوا لي لحداً، وانصبوا علي اللبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ»[7]

---

(١) سنده قوي رواه عبد الرزاق ٣-٥٢٠ عن ابن جريج وغيره عن عبد الله بن أبي بكر عن أبيه عن عمرة عن عائشة.. عمرة تابعية ثقة أكثرت الرواية عن عائشة وأبو بكر بن محمد عمرو بن حزم وابنه ثقتان وابن جريج ثقة وقد توبع لأنه مدلس كما رواه ابن إسحاق عن فاطمة بنت المنذر وفاطمة بنت محمد عن عمرة عائشة.

(٢) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب. إسماعيل ثقة ثبت: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٣) سنده صحيح وهو الحديث السابق.

(٤) سنده صحيح وهو لفظ عبد الرزاق.

(٥) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

(٦) سنده صحيح رواه أبو يعلى ٤-٢٥٣ وعبد الرزاق ٣-٤٩٥ والبيهقي ٤-٥٣ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال أخبرني ابن عباس وقال الشعبي حدثني أبو مرحب وهذا السند صحيح إسماعيل ثقة ثبت من رجال الشيخين: التقريب ١-٦٨ والشعبي تابعي ثقة من أئمة التابعين.

(٧) صحيح مسلم ٢-٦٦٥.

وبعد أن فعل علي ومن معه ذلك خرجوا ليهيلوا التراب على القبر، وكان آخر من خرج من القبر قثم بن العباس.

يقول علي رضي الله عنه: «أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ قثم بن عباس»[1] لكن المغيرة بن شعبة كان يرقب المشهد بألم.. كان يفرك دهاءه كي يمس النبي عليه السلام في قبره قبل أن يهال التراب عليه: «فلما وضع في لحده ﷺ قال المغيرة: قد بقي من رجليه شيء لم يصلحوه. قالوا: فادخل فأصلحه، فدخل وأدخل يده فمس قدميه فقال: أهيلوا علي التراب.

فأهالوا عليه التراب حتى بلغ أنصاف ساقيه، ثم خرج فكان يقول: أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ»[2].

أهالوا التراب والدموع عليه، وبكاه من في بيت عائشة، ومن في المسجد، ومن في الطرقات والمنازل.. بكوا ذلك النبي الذي كان أرحم الناس بهم، وأحب الناس إليهم.. بكوا محمداً الذي كانت مصيبة موته تخفف كل المصائب التي تمر بهم.. محمداً الذي فارق الحياة جسداً، لكنه بقي سنة ومنهجاً.. نهض الصحابة من عند قبره مثقلين بالكمد.. محملين بسنته وقرآن ربه وربهم.. نهض الصحابة بعد دفنه ولم يعكفوا عند قبره، ولم يحولوا ذلك القبر إلى مزار مرصع بالجواهر مطلي بالذهب، بل إن عائشة استمرت في السكن في بيتها ولم تفارقه، أما الصحابة فلم يضيعوا أوقاتهم عند قبره بتلاوة الأشعار والمدائح والبكائيات، بل ولا بقراءة القرآن.

لقد علمهم عليه الصلاة والسلام كيف يصنعون الحياة.. كيف يشرقون كالشمس في عروق المستقبل والأجيال.. نهضوا من عند قبره فحملوا رسالته إلى العالم لينقذوه بها كما أنقدهم هو قبل ذلك بها. فصلى الله عليه وسلم، وجزاه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وجمعنا به في جناته في الفردوس.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق السيرة النبوية ٦-٨٧ حدثني أبي؛ إسحاق بن يسار عن مقسم أبي القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عبد الله بن الحارث عن علي وهو سند صحيح فوالد ابن إسحاق تابعي ثقة وكذلك مقسم وعبد الله بن الحارث مجمع على توثيقه انظر التقريب ١-٤٠٨.

(٢) سنده صحيح رواه أحمد ٥-٨١ وغيره من طريق عن حماد بن سلمة عن أبي عمران يعني الجوني عن أبي عسيب أو أبي عسيم قال بهز إنه شهد الصلاة على رسول الله ﷺ.. وأبو عسيب صحابي وأبو عمران الجوني اسمه عبد الملك بن حبيب وهو ثقة من كبار التابعين: التقريب ١-٥١٨ وحماد إمام ثقة معروف.